((Denotations Of Meaning)) Sixth Section of Deliberative Indices An Applied Study of The Indicative Manifestations Of (That) And Its Suffixes in The Qur'anic Discourse

Instructor. Jinan Salim Mohammad Albaldawi, (PHD)
Department of Arabic, College of Arts, University of Imam Ja'afar Alasadiq/ Branch of Salah-Aldin, Iraq.
jinan.salem@sadiq.edu.iq

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i142.3655

Abstract:

Studying the five sections of the pragmatic denotations - according to Levinson - It is evident that it did not include what refers to the meaning of their expressions, we proceeded to hold this study to be a sixth and complementary section to those sections, so we called it (Denotations of Meaning). The speaker's attitude towards these meanings, and after setting the controls and limits of this new section, te researcher study it in the Qur'anic discourse, choosing (that) and its appendices as a model, indicating that this use of (that) is included in its figurative uses; Because it refers to the intangible (meanings), and the research concluded that the indicative manifestations of alienation in (that) differ according to the verbal context in which it is located; Sometimes the speaker wants to glorify, intending to urge and incite, or remind and threaten, or encourage and advise, and other times he wants to emphasize in a way of exaggeration, and another by which he wants to belittle, intending to warn, and he also concluded that its coming is identical to the addressee is meant to distance and address. Together for a deliberative intent, either to include the addressees alike, or to honor them, or to increase alertness to them as well as to others, or to include every recipient in every time and place.

Keywords: denotations, denotations of meaning, discourse, distance, that.

((إشاريات المعنى)) قسمًا سادسًا للإشاريات التداولية
دراسة تطبيقية في التّجليات الإشارية لـ(ذلك) ولواحقها في الخطاب القرآني

م. د. جنان سالم محمد البلداوي، دكتوراه في اللغة واللسانيات، مدينة بلد/ محافظة صلاح الدين/العراق
مكان العمل: كلية الآداب/جامعة الإمام جعفر الصادق(ع) فرع صلاح الدين

(مُلَخَّصُ البَحث)

لما رأينا عدم اشتمال الأقسام الخمسة للإشاريات التداولية ـ عند لفنسون ـ على ما يشير الى المعنى من تعابيرها عمدْنا الى عقد هذه الدراسة لتكون قسمًا سادسًا ومكمّلًا لتلك الأقسام، فأسميناه بـ (إشاريات المعنى)، يتناول هذا القسم دراسة التعابير الإشارية التي تشير الى المعاني، وتحدد موقف المتكلم تجاه تلك المعاني، وبعد وضع ضوابط وحدود هذا القسم الجديد اعتنيتُ بدراسته في الخطاب القرآني، مختارة (ذلك) ولواحقها أنموذجًا، مبينة أنّ هذا الاستعمال لـ(ذلك) يدخل في استعمالاتها المجازية؛ لأنّه يشير الى غير المحسوس(المعاني)، وتوصل البحث الى أنّ التجليات الإشارية للتبعيد في (ذلك) تختلف باختلاف السياق التلفظي الواقعة فيه؛ فتارة يُريد منه المتكلم التعظيم قاصدًا الحث والتحريض، أو التذكير والتهديد، أو الترغيب والنصح، وأخرى يريد بها التأكيد على نحو المبالغة، وأخرى يريد بها التحقير قاصدًا التحذير، وتوصل أيضًا الى أنّ مجيئها مطابقة للمخاطب (ذلك، ذلكما، ذلكم) يراد منه التبعيد والخطاب معًا لقصد تداولي إمّا شمول المخاطبين على حد سواء، وإمّا تشريفهم، وإمّا زيادة تنبيه لهم فضلًا عن غيرهم، وإمّا شمول كل متلق في كل زمان ومكان.

الكلمات المفتاحية: الإشاريات، إشاريات المعنى، التبعيد، الخطاب، ذلك.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق حبيب آله العالمين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

أمّا بعد

فلدراسة دينامية لغة الخطاب القرآني في المنظور التداولي، ولاسيما الإشاري منه أهمية كبيرة؛ وذلك للكشف عن القصد التداولي للتعابير الإشارية في هذا الخطاب المقدس، فضلًا عن ذلك أنّني وجدت بعد قراءة هذه الخطابات أنّه هناك استعمالات لبعض هذه التعابير لم

يدرجها التداوليون في أقسام الإشاريات بعد التقسيم الأخير لها عند لفنسون ـ وذلك عندما قسّمها على خمسة أقسام(الشخصية، الزمانية والمكانية والاجتماعية والتخاطبية) ـ ألا وهي استعمال بعضها للإشارة الى المعاني؛ لذا رأيتُني أضيف قسمًا سادسًا لها يشتمل على تلك العلامات، فأسميته (إشاريات المعنى) مريدة به دراسة العلامات أو التعابير الإشارية التي تشير الى معانٍ، وتعمل على تحديد موقف المتكلم من تلك المعاني، مبينة أنّ تحديد دلالتها يتوقف على: الوقوع التلفظي له، والسياق الذي تقع فيه، والكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين، هذا وتضمن البحث أبعاد منها: عرض موجز لترجمة مصطلح (Deixis)، وتعريف الإشاريات مصطلحًا تداوليًا، مع عرض موجز أيضًا بأقسام الإشاريات، ثُمّ عرض مفصل لموضوع البحث اشتمل على الآتي:

أولًا: تعريف(إشاريات المعنى).

ثانيًا: أمثلة تطبيقية.

ثالثًا: مقومات تحديد دلالة إشاريات المعنى.

رابعًا: إشاريات المعنى في الخطاب القرآني.

خامسًا: ذلك ولواحقها رمزًا تداوليًا لإشاريات المعنى في الخطاب القرآني.

إذ عمدت في الأخيرة الى دراسة هذه التعابير على وفق منهج تحليليّ تداوليّ، قاصدة في النهاية الوقوف عند تجليات دلالة التبعيد في (ذلك ولواحقها) في هذا الخطاب المقدس، فضلًا عن الوقوف عند القصد التداولي في المواضع التي جاءت فيها تلك التعابير مطابقة للمخاطب(ذلكما، ذلكم).

أولًا: الإشاريات Deixis

أشهر ترجمة لمصطلح deixis في علم التداولية هو((الإشاريات)) (شارودو و منغنو، ٢٠٠٨، صفحة ١٥٦) في حين ترجمه قصي العتّابي في كتاب التداولية لجورج يول بـ ((التأشير))(يول، ٢٠١٠، صفحة ٢٧)، أو (التعبير التأشيري) deictic expression، وترجمه قاسم المقداد في كتاب الملفوظية لجان سيرفوني بـ))مرجعيات الملفوظ(((سيرفوني، ١٩٩٨، صفحة ٢٧)، إلا أنّ هناك من استعمل لهذا المفهوم غير هذا المصطلح منهم (روسل)، إذ أطلق عليه))الأنوية الخاصة((egocentric particular)) ((، في حين سمّاه ج. فيومين (j.vuillemin) بـ))دليل الذاتية((indicateur de subjectivi'c)) ((، ونحتَ له كودمان اصطلاح))الدليل((indicator)) ((، وأتى له رايشنباخ باصطلاح))العالم الرمزي التأملي((Token reflexive word (أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٤١).

ثانيًا: الإشاريات مصطلحًا تداوليًا:

عرّفها ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي قائلينِ:))الإشاريات (Deixis) كلمة يونانية تعني (ظهور، فعل الإظهار)، وتستعمل للدلالة على التحديد اللغوي لوسائط الوضعية التلفظية يطلق على الصور المعينة إشاريةde'ictiques))، وتشمل بصفة عامة المؤشرات الشخصية والفضائية الزمانية(((بافو و رفاتي، ٢٠١٢، صفحة ٢٩٣)، وعرّفها ليونز قائلًا:))إنّه مفهوم مترابط مع مفهوم المشير، إذ يُفهم عادة من إشارية تعيين مكان وهوية الأشخاص والاشياء والعمليات والأحداث والأنشطة... بالنسبة الى السياق المكاني الذي أنشأه وأبقاه عمل المتلفظ(((شارودو و منغنو، ٢٠٠٨، صفحة ١٥٦ـ ١٥٧)، وهي عند فرانسواز :)) دراسة للرموز الإشارية، أي للتعابير المبهمة حتمًا، ضمن ظروف استعمالها، أي سياق تلفظها(((أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٣٨)، ونقلت عن هانسون في تقسيمه لدرجات التداولية إنّه عدّها الدرجة الأولى للتداولية (أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٣٨)، وعرّفها جان سيرفوني))على أنّها علامات تحيل الى ملفوظيتها، ويُقال أحيانًا إنّها تعكسها(((سيرفوني، ١٩٩٨، صفحة ٢٧)، وفصّل هذا بقوله:))عبارة عن كلمات تشير من داخل الملفوظ الى تلك العناصر الأساسية المكونة للملفوظية، وهذه العناصر هي: المتحدث، والمخاطب، ومكان وزمان الملفوظية، لكن المرجعيات تدل على تلك العناصر وفقا لطريقتها أي: (إنها تقوم بعكس حدوثها)، وهذا يعني أنّه في كل مرة يتحدث فيها أنا فإنّ هذه الكلمة لا يسعها إلا التدليل (الإشارة) الى الفرد الذي قال أنا بهدف الحديث عن نفسه.... ينتج عن ذلك أنّه من المستحيل عزو مرجع محدد لتلك الكلمات إذا كنا نجهل (باعتبارنا مخاطبًا، أو مشاهدًا، أو عن طريق معلومات منعزلة عن عملية التخاطب نفسها) عوامل المتحدث والمخاطب الملفوظية وإطارها الزماني والمكاني(((سيرفوني، ١٩٩٨، صفحة ٢٧ . ٢٨)، وقال جورج يول هي:))مصطلح تقني يُستعمل لوصف إحدى أهم الأشياء التي نقوم بها في أثناء الكلام، والتأشير يعني الإشارة من خلال اللغة(((يول، ٢٠١٠، صفحة ٢٧)، وعرّفها هاليداي:))إنّها الأدوات التي نعتمد في فهمنا لها لا على معناها الخاص بل على اسنادها الى شيء آخر(((براون و يول، ١٩٩٧، صفحة ٢٣٠)، وقال نعمان بوقرة هي:))ألفاظ دالة على عناصر غائبة حاضرة، حصرها ولفنسون في إشاريات شخصية، وإشاريات زمانية، وإشاريات مكانية، وإشاريات اجتماعية، واشاريات خطابية(((بوقرة، ٢٠٠٩، صفحة ٨٧). فضلًا عمّا تقدّم فقد اعتنى بدراستها آخرون، منهم: لفنسون، ود ديفيد كبلن David Kaplan وجان كلود ميلنر jean claude milner ، وبارهليل ، y.bar–hillel وبيري j.Perry ، وباخ k.bach ورسل B.Russell وغيرهم.

مما تقدّم يمكن تعريفها بقولنا:

هي مجال من مجالات البحث التداولي تُعنى بدراسة كلّ ما يشير الى ذات أو موقع أو زمن أو ... ويعيّن المشار إليه ويحدده بالنسبة الى المتكلم.

وذلك كقول أحدهم لصديقه نلتقي الساعة الثامنة، فلا يُعلم هل يريد الثامنة صباحًا، أم الثامنة مساءً، أو ربما قالها أمس وقد مضى وقتها، إلا أنّه إذا قال ذلك في الساعة الواحدة ظهرًا مثلًا ويريد أنّه سيلتقي به في الوقت المشار إليه في اليوم ذاته، فسيعلم المخاطب وقت اللقاء، ومنه يعلم أنّ دلالة الإشاريات الزمانية يحددها السياق بالقياس الى زمان التكلم. ومنه يُعلم أنّ هذه العبارة الإشارية (ساعة) تتغير دلالتها فيما إذا تمّ الايقاع اللفظي في زمن آخر، وأنّ تحديد دلالة الإشاريات التداولية مشروط بشرطين؛ الأول تحقق ايقاع تلفظي، والثاني وجودها في سياق تكتسب دلالتها منه، أي إنّ هذه الأدوات الإشارية لا تحمل دلالة خاصة، بل تتعين دلالتها وتتغير بحسب القصد والسياق، يؤيده قول فليب بلانشيه:" إنّ عددًا من العناصر يجري استعمالها بكثرة في اللسان، لا دلالة ممكنة له إلا بالنسبة الى سياق التلفظ والى عالم الخطاب، إنّها ما نسميه(العناصر الإشارية)...." (بلانشيه، ٢٠٠٧، صفحة ١٣٣)، وقول باخ: "دلالة الجمل الاشارية لا تتعلق بالمعنى الحقيقي للحدود المكونة للجملة، ولكن تتعلق باستعمال المتكلمين لهذه الحدود، وعليه فإنّ إحالة العبارات الاشارية لا يمكن ان تتأسس على مفهوم الاحالة اللسانية، ولكن قيمتها التداولية تتحدد انطلاقًا من مفهوم احالة المتكلم" (السيساوي، ٢٠١١، صفحة ٤٤٩)، (فذلك) مثلًا لا تحدد المشار إليه بماهي، أي لا تُؤسس إحالتها على أساس إنّها اسم يشار به الى البعيد فحسب لكن المتكلم هو الذي يحددها، وسيأتي تفصيل هذا لاحقًا.

ثالثًا: أقسام الإشاريات:

قسّم جورج يول وبعض اللسانيين الإشاريات بحسب الميادين الثلاثة المكونة لمقام التلفظ: شخصية ومكانية وزمانية (يول، ٢٠١٠، صفحة ٢٨ . ٣٦)، أمّا لفنسون فجاء مكملًا لهذا التقسم ذاهبًا الى أنّها على خمسة أقسام:" الشخصية . المكانية . الزمانية . التخاطبية . الاجتماعية (ليفنسون، ٢٠١٥، صفحة ٨٧ . ١٣٩)، أمّا الشخصية فهي (الضمائر أنا وأنت....)، فالضمير: (أنا) يمكن انطباقه على أكثر من مصداق بالقوة، ولكن تتعين بحسب السياق الذي يدّل على أنّ الذي أوقع تلفظها يريد الإشارة الى نفسه حصرًا وتعيين شخصه، والزمانية هي (أسماء الزمان: اليوم وغدًا والاسبوع، الساعة...)، وقد مثلنا لذلك مسبقًا، والمكانية هي (أسماء الاشارة: هذا، ذلك، هنا)، فقولك لمن يسأل: أين أنت؟ مجيبًا: (هنا)، وأنت تتكلم معه عبر الهاتف، هل يعني أنّك: في الشارع أم في البيت، أم في العمل أم في بقعة ما؟، فبالتالي لا يمكن تحديد التعبير الإشاري وتفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه، والاجتماعية هي ألفاظ تشير الى العلاقات الاجتماعية بين المتكلمين

والمخاطبين محددة إياها من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة ومودة (كجنابك، وفخامة الملك والسيدة والآنسة....)، والخطابية كروايتك لقصة وانتقالك في الحين نفسه الى قصة أخرى، فتقول: (وتلك قصة أخرى)، أو استعمال الزمانية والمكانية في النصوص كقولك: (الفصل السابق من الكتاب).

ثالثًا: إشاريات المعنى قسمًا سادسًا للإشاريات التداولية

فضلًا عمّا تقدّم وجدت الباحثة أنّه يمكن أن نضيف الى الأقسام الخمسة السابقة قسمًا سادسًا قد غُفل عنه على الرغم من أنّه مطرد الاستعمال في لغتنا اليومية، يمكن أن نسميه بـ(إشاريات المعنى)، نحو قول أحدهم لزيد: استمعت الى أداء خطبة محمد فأبهرني ذلك الأداء، فأشار بـ(ذلك) الى الأداء مريدًا بيان وقع هذا الأداء في نفسه بما في(ذلك) من التبعيد الكاشف عن بيان مدى اعجاب المتكلم بالمشار إليه أو تعظيمه، وعليه يمكن تعريفها بأنّها:

عناصر أو رموز تشير الى معانٍ، محددة وقع تلك المعاني أو مكانتها في نفس المتكلم، وتتغير دلالتها بحسب السياق التلفظي الواقعة فيه. وكأنّي أرى أنّها تقع ضمن الرأي الثالث الذي رآه بعض اللسانيين في الإشاريات، وذلك حين تأرجحوا بين ثلاث تصورات للإشارية:

١. الإشارية باعتبارها ترد أشياء العالم وأحداثه الى الموقع الذي يحتله المتكلم في المكان، وفي الزمان، وباعتباره موقّرًا أمارة لمرجع قد تكون بعد.
٢. الاشارية باعتبارها نمط تركيبي مرجعي لا يفصل بين الجهة وحدث المرجع.
٣. الاشارة باعتبارها عامل تكامل نصي (محورة تبئير تمكّن من ادخال أشياء جديدة في الخطاب) (شارودو و منغنو، ٢٠٠٨، صفحة ١٥٦ . ١٥٧).

أو ربما تقع ضمن الإشاريات التي تتعلق بالسياق الموسع عند بيري، إذ يرى أنّ المعالجة الدقيقة لسياقات الإشاريات ينبغي ان تحترم التمييز الآتي:

١. هناك الإشاريات التي تتعلق إشارتها بالسياق المصغر.
٢. والإشاريات التي تتعلق إشارتها بالسياق الواسع.
٣. والاشاريات التي تشير بشكل آلي وتتعلق في جانب منها بمقاصد المتكلم.

فالسياق الموسع عنده يتعلق بمكونات الوقائع حول التلفظ؛ كالزمان، والمكان، والموجودات، أيٍ: بمكونات السياق المصغر، فضلًا عن عنصر سياقي آخر، يتعلق بالتلفظ أيضًا، للقيام بإشارة خاصة (السيساوي، ٢٠١١، صفحة ٤٤٣)، هذا مع تعديل بسيط في السياق الزماني والمكاني، يمكن أن نضيفه في هذا النوع (أريد: إشاريات المعنى)، وسيأتي تفصيله، وفي كلا الحالتين سواء أكانت هذه الإشاريات محور تبئير تضيف شيئًا جديدًا للخطاب، أو تقع ضمن الإشاريات التي تتعلق بالسياق، فتضيف عنصرًا آخرًا أرى أنّ إضافة

موقف المتكلم من (المعنى المشار إليه) مريدًا الترغيب أو الترهيب أو الإرشاد هو العنصر السياقي الآخر أو الإضافة الجديدة للخطاب.

أمثلة تطبيقية:

بعد الاستقراء في لغتنا اليومية وجدنا أنّ الإشاريات التي تؤدي هذه الوظيفة الدلالية هي أسماء الإشارة: (ذا، وهذا ، وهذه ، وذاك، وذلك وتلك وتفريعاتهما: وذلكما، وذلكم، وذلكن، وتلك، وتلكما، وتلكن)، من ذلك قول أحدهم:

١. حازت هند الجائزة الأولى في مسابقة أفضل كاتب في العالم، هذا إنجاز علمي مائز.
٢. حفظ محمد القرآن كله، ذلك مشروع مبارك.
٣. لا تعقاّ والديكما، فذلكما ذنب عظيم.
٤. اسعوا الى فعل الخير، ذلكم أفضل عندي.

نجد أنّ المتكلم في الأمثلة السابقة استعمل (اسم الإشارة) للإشارة الى معنًى، مريًدا قصدًا ما، فتارة يستعمل (هذا) مشيرًا به الى حيازة هند الجائزة الأولى مبينًا أهمية هذا المنجز العلمي بالنسبة له وقربه الى نفسه، بما في (هذا) من معنى التقريب، وتارة أخرى يستعمل (ذلك) مشيرًا به الى إنجاز هو أعظم عنده من الأول، وهو (حفظ القرآن الكريم) بما في (ذلك) من التبعيد؛ للدلالة على عظمة شأن المشار إليه عند المتكلم جاعلًا من بعد المسافة بعًدا في المنزلة، إلا أنّ الجملتين الأخيرتين (٣ . ٤) تثير سؤالًا لابدّ منه وهو: لِمَ استعمل المتكلم (ذلك) مطابقًا للمخاطب مثنى وجمعًا فقال: (ذلكما . ذلكم)، على الرغم أنّه يستطيع أن يشير الى تلك المعاني ب(ذلك) عمومًا، وهو مستعمل عند العرب، فيقول: (ذلك شيء عظيم)، وقد استعمله القرآن الكريم:))وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ((سورة المائدة: الآية ٥٨). مخاطبًا الجماعة، يؤيده أيضًا قول ابن بركات الأنباري:))من العرب من يأتي بالكاف مفردة في التثنية والجمع على خطاب الواحد، إذا فهم المعنى؛ قال الله سبحانه وتعالى:)) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ((آل عمران:١٨٢)، ولم يقل (ذلكم)؛ وقيل: إنَّما أفرد؛ لأنَّه أراد به الجمع؛ (كأنه قال: ذلك أيها الجمع)، والجمع لفظه مفرد(((الأنباري، ١٩٩٩، صفحة ٢٧١)، وَذكر ابْن الباذش هذا أيضًا قائلًا:))الإفراد الكاف إِذا خُوطِبَ به جماعة تأويلين؛ أَحدهمَا أَن يقبل بالخطاب على واحد من الجماعة لجلالته، وَالْمرَاد لَه وَلهم، وَالثَّاني أَن يُخَاطب الكل، وَيُقدّر اسْم مُفرد من أَسمَاء الجموع يقع على الجماعة، تقديره: ذَلِك يوعظ به يا فريق، ويا جمع، وَنَحْو ذَلِك(((السيوطي، ٢٠١١، صفحة ١٨٢:١)؟ الجواب: على الرغم من جواز كلا الوجهين كما أثبتنا إلا أنّنا لو أنعمنا النظر في فلسفة لغة المتكلم لنجد أنّ اختياره لأحدهما لا يخلو من قصد إشاري يؤمّه، يؤيد ذلك أنّ القرآن استعمل كلا الاستعمالين في نص واحد، قال تعالى:))وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: الآية ٢٣٢)، فلو لم يكن للثاني غرضًا إشاريًا لمّا أعاد الإشارة به لنفس المشار إليه. قال ابن عاشور: "ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ إشارة الى حكم النهي عن العضل، وإفراد الكاف مع اسم الإشارة مع أنّ المخاطب جماعة رعيًا لتناسي أصل وضعها من الخطاب الى ما استعملت فيه من معنى بعد المشار إليه فقط، فإفرادها في أسماء الإشارة هو الأصل، وأمّا جمعها في قوله: ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ فتجديد لأصل وضعها" (الطاهر، ١٩٨٤، صفحة ٤٢:٢). أي: إنّ (ذلك) الأولى أراد بها التبعيد المراد به التنبيه على نحو المبالغة، أمّا الثانية ففضلًا عمّا تقدّم يراد بها الخطاب، وكأنّه أراد من قصد الخطاب المباشر بتكرار العلامة الإشارية مطابقة للمخاطبين بأنّ الكلام موجه إليكم فضلًا عن غيركم، وفيه ملمح الى تشريفهم، بدليل تخصيص الوعظ بهم، وهذا يدّل على حضوّهم بمنزلة عظيمة عند الله تعالى، ومن ثم فإنّ تكرار العلامة الإشارية جاء محبة لهم وحرصًا على حثهم لما هو أصلح لهم، يؤيد كل ما تقدّم قول الإسكافي في الكاف: إنّه" لما قصد بها معنيان: الخطاب والتبعيد جاز أن يعرى من أحدهما، وهو الخطاب، ويقتصر على معنى التبعيد على حسب قصد القاصد، وإذا جاءت مثناة اللفظ أو مجموعة على حسب حال المخاطبين فهي على المعنيين" (الإسكافي، ١٩٨١، صفحة ٥١)، فكأنّه أراد أنّ لـ(الألف والميم والنون) من (ذلكما، ذلكن، ذلكم) غرضًا تداوليًا، وهو إرادة الخطاب متضمنًا قصدًا أراده فضلًا عن التبعيد، كقول أحدهم لأبنائه: محمد إنسان كريم ذلكم خلق حسن، فهنا (ذلك) أشار بها الى صفة الكرم مبينًا إنّ هذا الخُلق محببٌ لديه، أي: الميم أفادت معنى ضمنيًا، أراد به المتكلم تنبيه أولاده الى أنّ الخطاب موجه إليهم، قاصدًا أو طالبًا منهم الاقتداء بمحمد، وإن لم يصرح بذلك، معظمًا هذه الصفة بالنسبة له، وعليه لو رجعنا الى المثال (٣) لنجد أنّ المتكلم أشار بـ(ذلكما) الى الكف عن عقوق الوالدين لِما في (ذلك) من التبعيد، وهذا مناسب لمّا تمّ النهي عنه، وإشارة الى قبحه عند المتكلم، فالنفس تبتعد عمّا هو قبيح بالفطرة، وإنّما جاء مطابقًا للمخاطب المثنى زيادة في التنبيه بأنّ الكلام موجه الى كلاكما، تحذيرًا لهما، وعليه تضافرت هنا عدة عوامل: (البعد+ قصد الخطاب+ مقتضى المقام)، أمّا في المثال الرابع فقد أشار بـ (ذلكم) جمعًا ليحكي لنا جميل هذا الفعل وعظمته عنده، لما في (ذلك) من التبعيد الدال على التعظيم، مريدًا من المطابقة للمخاطبين التنبيه الى أنّ الكلام موجه الى الجميع ترغيبًا لهم، ولاسيما إذا كان الأمر موجه الى المقربين منه مثلًا، فإنّه حقق بذلك هدفه الخطابي التفاعلي، وهو تحقق قرب المخاطبين إليه، إذا كانوا طامعين بذلك. وبذلك يكون القصد الإشاري لـ (ذلك) هنا مخالفًا للقصد الإشاري له في المثال(٣)، وذلك بحسب الاستعمال، هذا ما أكدّه فينشتغاين

عندما اطلق))مبدأه سلوا الاستعمال وليس الدلالة، فإنّه لا يعنى ابنوا نظرية الاستعمال، بل يعني ببساطة انظروا الى الاستعمال، ليس هناك ما يرى خارجه(((أورو، ٢٠١٠، صفحة ٩٦) ، يؤيد كل ما تقدّم قول فرانسواز: إنّ))التداولية توسع ببساطة التعريف الدلالي لحقيقة اللغات الشكلية التي تشمل على اصطلاحات اشارية(((أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٤١).

رابعًا: مقومات تحديد دلالة إشاريات المعنى:

قد بينا سابقًا أنّه لا يمكن أن تقوم التعبيرات الإشارية بوظيفتها التداولية (التحديد) إلا بتحقق إيقاع تلفظي وسياق يحدد تلك الدلالة إلا أنّي أرى أنّ التعبيرات الإشارية للمعنى تتطلب شرطًا ثالثًا، وتفصيل كل ذلك ما يأتي:

أولًا: الايقاع التلفظي: لا يمكن تحديد دلالة الإشاريات بكل أنواعها ما لم يحقق تلفظها حاضرون، هذا ما أشار إليه لفنسون إذ ذهب الى أنّ التعبيرات الاشارية تذكير دائم لنا بأنّ اللغات الطبيعية وُضعتْ أساسًا للتواصل المباشر بين الناس وجهًا لوجه، وتظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنّا ما تشير إليه، فيسود الغموض ويستغلق الفهم (ليفنسون، ٢٠١٥، صفحة ٨٧)، وكأنّي أرى أنّه أراد إنّ الإيقاع التلفظي لإنشاء سياق زماني ومكاني وشخصي واجتماعي... للتعبيرات اللاإشارية كفيلة لرفع الغموض عن المشار إليه، وقبله أيضًا بيرس))الذي وصف هذه الألفاظ أولًا بعلامات مؤشرة، وبرهن على أنّها تحدد موضوع الإحالة من خلال علاقة وجودية بين العلامة وموضوع الإحالة(((ليفنسون، ٢٠١٥، صفحة ٩٠)، وعليه نخلص))الى أنّ الوقوع التلفظي هو الكفيل بالكشف عن الخصائص التداولية للجملة، المتلفظ، وزمن التلفظ، ومكانه، وباقي الخصائص التداولية الاخرى(((السيساوي، ٢٠١١، صفحة ٤٥١).

وهذا ينطبق أيضًا على(إشاريات المعنى)، إذ لولا تلفظ المتكلم بها في جملة ما لمّا تمّ الكشف عن موقفه من المشار إليه في نفسه، أمّا إنشاء فعل التلفظ للسياق الزماني والمكاني فهذا في الأنواع الخمسة التي وضعها لفنسون، ومن سبقه كما قدمنا، أمّا في هذا النوع فأرى أنّ في الزمان والمكان هنا سعة لامتناهية، فالحسن من المعاني حسن عند المتكلم ماحيي وكذلك القبيح، ولا يتغيرا أبدًا، ومنه يمكن التوصل الى نقطة مهمة جدًا وهي إنّ مهمة فعل التلفظ في (إشاريات المعنى) هو إنشاء سياق نفسي نسبي، يحكي عن موقف المتكلم من تلك المعاني(المشار إليه)، وبذا يختلف الوقوع التلفظي للتعبير الإشاري الواحد بما له من دلالة مقصودة بحسب ذلك السياق، فكل تلفظ لـ (ذلك) مثلًا له دلالة جديدة ومختلفة ترتبط بالسياق الواقع فيه أو المشار إليه، كما مثلنا في استعمال (ذلك) تارة للترهيب، وأخرى للترغيب، وهذا ما ذهب إليه باخ مبينًا بأنّ العبارات الإشارية التي نستعملها تنزع الى أن

تكون فقيرة من الناحية الدلالية، فدلالتها تبقى نسبية بالقياس بما نعنيه بالتلفظ (السيساوي، ٢٠١١، صفحة ٤٤٢).

ثانيًا: السياق: لقد أكّد باهليل في أطروحته حول (العبارات الإشارية) على أهمية السياق مبينًا أنّ أكثر من تسعين بالمائة من التلفظات التي ننطق بها في سياق حياتنا اليومية هي تلفظات إشارية، يحددها السياق التلفظي الذي وردت فيه (السيساوي، ٢٠١١، صفحة ٤٤١)، وكذلك روسل في اطروحته الاختزالية التبسيطية لدراسة هذه الرموز الإشارية، إذ يرى أنّ دلالة هذه الكلمات تكون نسبية بالنسبة للمتكلم، أي ليس لها دلالة محددة، إلا إذا كانت في سياق ما، إذ يمكن لكل التحديدات التي يراد الوصول إليها أن تُعرف عنده بمساعدة إشارة (هذا)، وهكذا يدل (أنا) على البيوغرافيا التي ينتمي إليها، وتدل (هنا) على مكانة (هذا)، و(الآن) يدل على زمن هذا، وهكذا دواليك، وباختصار يخضع (هذا) لعلاقة استعمال الكلمة مع ما ترتبط به هذه الكلمة (أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٤٢ . ٤٣)، وتوضيح ذلك إنّنا ليس لدينا شيء اسمه (أنا)، ولكن بالوقوع التلفظي لها من قبل متكلم في سياق يشير الى أنّه أراد الحديث عن نفسه، وتعيين شخصه، وكذلك قول أحدهم:(الآن)، فلا يمكن معرفة دلالتها إلا بدخولها في سياق تلفظي، إذ يحتمل إنّه قالها في وقت التكلم، وربما قبل يومين أو قبل ساعة، أي إنّها تُحدد الزمان بالقياس الى زمن التكلم، وكذلك(هنا) وهكذا البواقي، وينطبق أيضًا على الإشاريات التي نُعتى بدراستها، وهي (إشاريات المعنى) فلا يمكن معرفة دلالة (ذلك) مثلًا إلا بوقوعها في سياق تلفظي يحكي عن الموقف النفسي للمتكلم من المشار إليه، وخلاصة القول:))تختص الإشارة Deixis بالطرائق التي تشفر بها لغات خواص سياق المنطوق، أو الحدث الكلامي، أو تعممها، ومن ثُمّ أيضًا كيف يتعلق تفسير منطوقات بتحليل ذلك السياق للمنطوق، لذا لا يذكر مثلًا الضمير (هذا) في كل سياقات الاستعمال كيانًا معينًا، أو يحيل الى هذا بل هو بالأحرى متغير أو ممثل لكيان معين مقدّم من خلال السياق (مثلًا من خلال اشارة)... (((ليفنسون، ٢٠١٥، صفحة ٨٧)، ولأجل ما تقدّم))كانَ موضوع التداولية عند بارهييل ومونتاك هو السياق وما يحويه من افراد موجودين في العالم الواقعي(((أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٤٨).

ثالثًا: الكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين

أرى فضلًا عمّا قدّمه التداوليون أنّ تحديد دلالة التعبيرات الإشارية يتوقف أيضًا على الكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة لدى المرسل والمرسل إليه، إذ لا يمكن للمرسل تحقق خطابًا ناجحًا مع المرسل إليه إذا كان يعلم أنّ الأخير لا يعرف المشار إليه، كقولي لزيد: مُر بالعروف وانهِ عن المنكر فإنّ ذلك تكليف شرعي، ففضلًا عن دلالة التبعيد في (ذلك) في المثال الأخير المفيدة تأكيد أهمية وجوب القيام بهذا الفعل بالنسبة للمتكلم، واستعمالها في

سياق مناسب لها؛ إذ لا يمكن لأي شخص القيام بذلك لصعوبته، ودلالة الكاف لتحقق الخطاب المباشر ليكون أكثر تأثيرًا فإنّ كل ذلك لا يحقق تفاعلًا خطابيًا ما لم يعرف المخاطب معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الوقت نفسه لو قلت لأحدهم: كن حليمًا، فإنّ ذا أمر جميل، فمع دلالة (ذا) على تحبيذ هذا الفعل وقربه الى نفس المتكلم، بما في (ذا) من معنى التقريب فإنّ هذه الرسالة لم تصل الى المخاطب إذا لم يعرف معنى (الحُلم)، إذن))ترتبط الإشارة جليًا بأهداف المتكلم (مثلا تعريف شيء ما) وبمعتقدات المتكلم(أي هل يتوقع من المستمع معرفة ذلك الشيء بالتحديد؟) في استعمال اللغة(((يول، ٢٠١٠، صفحة ٤٠)، إذن))الاشارة الناجحة هي بالضرورة مشتركة وتعاونية، إذ إنّ لكل من المتكلم والمستمع دور في التفكير عما يجول في بال الآخر ((يول، ٢٠١٠، صفحة ٤٠).

مما سبق عُلم أنّ دلالة هذه التعبيرات الإشارية تبقى مضمرة في الكفاية اللغوية، وتقوم الكفاية التواصلية بإدراكها، أو بمعنى أدق: إنّ هذه الدراسة لا تعتني بالكفاية اللغوية، بل هي تحصيل حاصل فقط، وتحقق التفاعل التخاطبي الناجح يعتمد كليًا على الكفاية التواصلية.

سادسًا: إشاريات المعنى في الخطاب القرآني

لقد وجدتُ الإشارة الى المعاني في الخطاب القرآني بكل التعابير الإشارية التداولية التي قدمناها في البحث:

أولًا: هذا: لقد استعمل الخطاب القرآني(هذا) مشيرًا بها الى المعاني في مواضع قليلة منها قوله تعالى:))قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ((سورة الأعراف: الآية ١٢٣).

ثانيًا: ذلك ولواحقها: هي أكثر التعابير الإشارية المستعملة في الإشارة الى المعاني في الخطاب القرآني، نحو قوله تعالى:))يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً((سورة النساء: ٢٩.٣٠).

ثالثًا: تلك ولواحقها: هي أقل التعابير الإشارية مشيرة الى المعاني في الخطاب القرآني:))قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ* فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ الأنبياء (((سورة الأنبياء: ١٤. ١٥).

إلا أنّنا سنقتصر على دراسة (ذلك وتوابعها) للكشف عن تجلياتها الإشارية التداولية في الخطاب القرآني:

سابعًا: ذلك رمزًا تداوليًا لإشاريات المعنى في الخطاب القرآني

كما هو معروف إنّ اسم الإشارة (ذلك) يقع في الاستعمال التداولي ضمن الإشاريات المكانية؛ فيحدد مكان المشار إليه بالقياس الى مكان المتكلم، في سياق تلفظي، فقول

أحدهم: ذلك الرجل مشيرًا الى محمد، يريد تحديد مكان محمد الذي يبعد عن مكانه بمسافة ما، إلا إنّنا لابد أن نضيف الى أنّ (ذلك) لا تتوقف وظيفتها الإشارية في الاستعمال التداولي عند الإشارة الحسية أي تحديد البعد المادي النسبي للأشياء أو الأشخاص، بل يمكن أن تخرج هذه الوظيفة مجازًا لقصد يريده المتكلم، وذلك بحسب أستعمالات عدة:

أولًا: استعمالها للإشارة الى محسوس لتحديد الموقف النفسي بالنسبة للمتكلم، أي بحسب البعد والقرب النفسي للمتكلم تجاه المشار إليه، وهو ما سماه ليفنسون بـ المسافة العاطفية emotional distance ، أو الاشارة العاطفية empathic deixis (نحلة، ٢٠١١، صفحة ٢٣)، وهذا ما ذهب إليه جورج يول، إذ رأى أنّه))قد يكون الأساس التداولي الحقيقي للتأشير المكاني تباعدًا نفسيًا psychological distance، يميل المتكلم الى معاملة الأشياء البعيدة ماديًا على أنّها بعيدة نفسيًا، مثلا: ذلك الرجل هناك، مع ذلك قد يرغب المتكلم في جعل شيء قريبًا ماديًا(مثلًا عطر استنشقته) بعيدًا نفسيًا، بقوله: لا أحب ذلك العطر، وفقًا لهذا التحليل فإنّ كلمة مثل ذلك لا تمتلك معنى دلاليًا ثابتًا، ولكنها تشبع بمعنى ما في سياق المتكلم((يول، ٢٠١٠، صفحة ٣٣).

ثانيًا: استعمالها لتحديد الموقع الرتبوي النسبي للمشار إليه المحسوس، أي بحسب مكانة ومرتبة المشار إليه عند المتكلم كقولي متحدثًا عن محمد، وقد رأيت فيه علمًا وفيرًا: ذلك عالم عظيم، على الرغم من قربه مني، فاستعملت(ذلك) هنا لتبعيد القريب تعظيمًا للمشار إليه، وهذا وارد في القرآن الكريم كقوله تعالى:)) ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ((سورة البقرة: الآية ٢)، مريدًا تعظيم كتاب الله تعالى، وقد أشار ابن مالك الى ذلك في باب تبادل أسماء الإشارة قائلًا:))وقد ينوب ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه (((الطائي، ١٩٩٠، صفحة ٢٤٨:١).

ثالثًا: استعمالها مشيرًة الى ذوات لا تحس ولا تشاهد، وذلك لجعله كالمشاهد:))فذلكم الله(((سورة يونس: الآية ٣٢).

رابعًا: أضيف الى ما تقدّم استعمالها مشيرة الى المعاني أو فحوى ما قبلها من الكلام، (أي مشيرة الى غير المحسوس)، وقد ذكرتُ أنّي أسميتُ هذه الإشاريات بـ(إشاريات المعنى) مكملة بها الأقسام الخمسة التي وضعها لفنسون ومن قبله، وبيّنتُ أنّ وظيفتها الإشارية هي تحديد موقف المتكلم من تلك المعاني محللة بعض الأمثلة، والآن أعمد الى تطبيقها في الخطاب القرآني للكشف عن ألوان تجليات تلك المقاصد الإشارية.

القسم الأول: ذلك

أولًا: قال تعالى:)) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) ((سورة آل عمران: الآية ١٨٦).

لو تأملنا في هذا الخطاب الإلهي سواء أكان موجهًا لمن كان في معركة أحد، أم للمؤمنين بما يخضعون من ابتلاءات كثيرة على ما نقله المفسرون لنجد أنّ الله تعالى استعمل (ذلك) مشيرًا به الى معنيين، هما (الصبر والتقوى)، قاصدًا بهذه الإشارة بيان أهمية وعظمة هاتين الصفتين عنده تعالى؛ بما تحمل (ذلك) من معنى التبعيد، مؤكدًا كلّ ذلك بـ(إنّ)، وكأنّه تعالى ينبّه المخاطب الى أنّ التقوى والصبر أمران لابد من العزم لهما والامضاء عليهما، ولذا عمد الى تميزهما أكمل تمييز بهذه الإشارة، ليكون ذلك:))أعون على كمال المدح لأنّ ذكر الممدوح إذا صاحبه خفاء كان قصورًا في الاعتناء بأمره(((القزويني، صفحة ١:٣١٤)، وكأنّه تعالى يريد في النهاية تحقيق غرضًا تداوليًا وهو الحث والترغيب متضمنًا رسالة رفيعة، وإن لم يصرح بها، وهي ضرورة الثبات عند الابتلاءات، والإيحاء الى ثمرة هذا الثبات من المرتبة العظمى التي يُحظى بها المبتلي عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، هذا وإنّي أجد أنّ في هذا الترابط التداولي pragmatic connection إشارة إيحائية الى أنّه لا يستطيع أيّ كان التحلي بهاتين الصفتين، يؤيده استعماله تعالى(إن) بدل (إذا) في قوله:))فإن تصبروا((، إذ تستعمل (إن) في الأمور القليلة الوقوع، يعضد ذلك السياق الذي وقعت فيه، إذ يعرض لنا أشد أنواع الابتلاءات؛ وهو الابتلاء بالأنفس من الأمراض وفقد الأقارب والعشائر والقتل والأسر والجراحات، والابتلاء بالأموال بما يقع فيها من كثرة الإنفاق، أو الفقر والحاجة، وكذلك الابتلاء بسماع الكلام المؤذي والجارح كطعنهم في الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي أنبياء الله تعالى، وفي الدين بل تخطئة كل من آمن، فالصبر على هذا لا يتحمله أيّ كان، وخلاصة القول: إنّ الوظيفية الإشارية لـ(ذلك) هنا هو حكاية عظمة الصبر والتقوى عند وقوع تلك الابتلاءات متضمنًا حكاية ثمرة الثبات عليهما وعاقبتهما الحسنة، لهذا نجد أنّ انطلاق فيتغناشتاين في كتابه رسالة منطقية فلسفية ١٩١٧ Tractatus Logico-Philosophicus كان من فرضية تقول:))إنّ اللغة ليس لها غير وظيفية حقيقية واحدة تمثيل حالات الأشياء(((أورو، ٢٠١٠، صفحة ٩٦).

ثانيًا: قال تعالى:)) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ ((سورة آل عمران: الآية ١١٢ .(

نلحظ في هذا الخطاب القرآني أنّ الله تعالى يعرض سوء مصير اليهود بكل مصاديق ذلك السوء؛ من سخطه، وغضبه، وذله لهم في الدنيا، فضلًا عن سوء العاقبة في الآخرة المسكوت عنه هنا، مشيرًا الى كل تلك المعاني بـ(ذلك)، مريدًا به بيان قبح هذا المصير وتحقيره، بما تحمل (ذلك) من معنى التبعيد، إذ النفس تبتعد عما لا تحبذه ـ هذا وربما يُراد به))الإيماء إلى بعدها في الفظاعة(((الآلوسي، صفحة ١:٢٧٧)، أي: الكفر ـ وعلى أي التأويلين فـ))كل جملة، في الواقع، تتضمن قولا (dictum) والمضمون الممثل، وطريقة القول (modus) والعملية النفسية التي بواسطتها يعطي المتكلم (صورة لغوية) لهذا القول(((بافو و رفاتي، ٢٠١٢، صفحة ٢٩٦)، فالسياق الذي وقعت فيه يحكي تلك الصورة، إذ يشتمل على وصف هذا الغضب كونه من الله فهو تهويل بعد تهويل لهذا الذنب وتفخيمًا له، فضلًا عن إضافة الآيات إلى اسمه تعالى زيادة تشنيع عليهم (الآلوسي، صفحة ١:٢٧٧)، وكذلك الكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة أي: لولا علم الله تعالى بأنّ المخاطبين سيفهمون معنى الذل والسخط وقبحهما للمبتلي بهما لما استعمل هذا التعبير المريد به التحقير، وكأنّه تعالى أراد التحذير من الكفر والآثار المترتبة عليه بأسلوبين أولهما: أسلوب الإشارة التعليلي المؤكّد ب(إنّ)على ما بينا، والثاني: أسلوب التكرار اللفظي لـ (ذلك)، قائلًا:))ذَلِكَ بِما عَصَوْا((منتهٍ الى العلة الأساس، وهي معصية الله والاعتداء على حدوده مزيدًا ـ بهذا التكرار ـ للتبعيد الأول المراد به التحقير فضلًا عن التبعيد عن ساحة رحمته الذي يفرضه السياق في الأصل تبعيدًا ثالثًا، ليذهب ذهن المتلقي كل مذهب فيتحول بهذا التكرار اللفظي من التحذير الى ترهيب، فـ))إنّ التعابير التأشيرية توصل دائمًا أكثر بكثير مما يقال (((يول، ٢٠١٠، صفحة ٣٧)، يؤيد ما تقدّم قول جون أوستن:))اعتمدت قابليتنا في تحديد المشار إليه المقصود على شيء تخطى حدود فهمنا لتعبير الاشارة. ساعدت هذه القابلية المادة اللغوية المصاحبة (السياق اللغوي) وكذلك جزء من النص المرافق ... لذا فمن الخطأ أن نعتقد أنّ فهم الاشارة يعتمد على قابليتنا في تحديد المشار إليهم من خلال تعبير الاشارة التداولية (((يول، ٢٠١٠، صفحة ٤٤ ـ ٤٥) ، أي: إنّ السياق اللغوي هنا المشتمل على أسلوبي التوكيد ودور النص المرافق لهما الحظ الأوفر في تحديد دلالة العبارة الإشارية، ومما تقدّم عُلم أنّ القصد التداولي للتبعيد في هذا الخطاب الإلهي جاء مخالفًا للقصد التداولي الذي جاء لأجله في النص السابق، ومرجع ذلك اختلاف الموقف النفسي النسبي للمتكلم تجاه المشار إليه، إذ إنّ))ملاحظة اللغة العادية تنزع الى ترجيح كفة الحقائق النسبية، وهي نتائج ظرفية دائما لمسارات تأويلية متنوعة ومتغيرة (((بلانشيه، ٢٠٠٧، صفحة ١٣٢).

ثالثًا: ذلكما

وردت (ذلكما) في القرآن الكريم في موضع واحد فقط، وهو قوله تعالى بلسان يوسف مخاطبًا المسجونين:" لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي" (سورة يوسف: الآية ٣٧)، إذ استعمل يوسف (عليه السلام) التعبير الإشاري(ذلكما)، "إشارة لهما إلى التأويل، أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي وأوحى به إليّ، ولم أقله عن تكهن وتنجم" (الزمخشري، ١٩٨٧، صفحة ٤٩٦:٢)، مريدًا بذلك "الإشارة إلى بعد منزلته وعلو درجته، اي: مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بالوحي، أو بنحو ذلك مما يحصل به العلم، كما يكون للأولياء" (الآلوسي، صفحة ٣٩٩:٦)، وههنا سؤال: لِمَا استعمل يوسف (عليه السلام)(ذلكما) مطابقًا للمخاطبين مثنى ولم يقل (ذلك مما علمني ربي..)، كما جاء استعمالها مفردة عمومًا في النصوص السابقة وهو مطرد؟ الجواب: نعم يمكنه، وقد قدّمنا ذلك إلا أنّه استعملها مثناة لقصد تداولي أراده؛ ليشير الى أنّ (ذلكما) هنا يقصد بها الخطاب والتبعيد معًا، أمّا التبعيد هنا فقد بيناه، وأمّا الخطاب فيراد منه أنّه موجه الى كلا السجينين على حد سواء دون تفريق، منتهيًا الى النتيجة التي يريد الوصول إليها، وهي إرشادهما كلاهما الى التوحيد، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أنّ "الكلمات بذاتها لا تشير الى أي شيء، فالناس هم الذين يشيرون" (يول، ٢٠١٠، صفحة ٣٩)، أي: إنّ إشارة يوسف (عليه السلام) الى عظم ورفعة منزلته مستعينًا بـ(ذلكما) فيه قصدًا أراده، وهو تنبيه إيحائي الى المخاطب بأنّ فضائل نعم الله على الموحدين كثيرة ،منها ما أنعم تعالى عليه من التأويل والوحي، وفي ذلك ترغيب شديد لهما لاعتناق الإسلام، فضلًا عن أنّ تحقق نجاح هذه الإشارة إنّما كان بمعية الكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين، إذ لو لم يكن يوسف(عليه السلام) يعلم بأنّهما يدركان تمامًا عظمة هذه الكرامة وإنّها بعيدة المنال لمّا استعمل هذا التعبير الإشاري، وعليه فالإشارة الناجحة تعني)إنّ القصد يتمّ فهمه من خلال الاستدلال مما يمثل نوعًا من المعرفة المشتركة، والتي تقود بالتالي الى ايجاد رابط اجتماعي، إذ لافتراض المعرفة المشتركة دورًا أساسيًا في دراسة الافتراض المسبق " (يول، ٢٠١٠، صفحة ٤٩)، وخلاصة القول: إنّ يوسف(عليه السلام) حقق باختياره لهذه الاستراتيجية خطابًا تفاعليًا ناجحًا مع السجينين، فالخطاب هو العبارة التي تدل على "كل ملفوظية تفرض متحدثًا ومستمعًا ينوي الأول التأثير على الثاني بطريقة ما" (سيرفوني، ١٩٩٨، صفحة ٥٤)، منه يعلم أنّ الغرض الإشاري التداولي من استعمال هذا التعبير هو التعظيم المراد منه ترغيب المخاطبين كليهما من دون استثناء.

القسم الثالث: ذلكم

أولًا: قال تعالى بلسان موسى (عليه السلام) مخاطبًا قومه: ﴿يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(سورة البقرة: الآية ٥٤_

بعد أن رجع موسى (عليه السلام) من ميقات ربه وجد قومه يعبدون العجل، وهنا لزم منه القيام بدوره الرسالي فعمد الى تبصير قومه بعاقبة ما فعلوه، مبينًا لهم بأنّهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم العجل مُحاولَة منه معالجة ارتكابهم لذلك الذنب

* هذا بصرف النظر عن تأويلات المفسرين في كيفية هذا القتل وفي دلالات ﴿فاقتلوا﴾ أيكون القتل يمثل التوبة نفسها فتكون الجملة بدل أم القتل تتمة للتوبة فتكون الفاء تعقيبية، وبصرف النظر عن أنّه هل يريد الإشارة بـ (ذلكم): الى القتل أم الإشارة الى التوبة والقتل، (الأندلسي، صفحة ٣٣٨:١).

العظيم (الشرك)، فأمرهم بالتوبة وذلك بقتل أنفسهم*، مشيرًا إليها بـ (ذلكم) مريدًا التنبيه على أهمية المبادرة الى التوبة والحث عليها على نحو المبالغة، بما في (ذلك) من معنى التبعيد، يؤيده قول الألوسي: ﴿جملة ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ

جملة معترضة للتحريض على التوبة أو معللة ﴾(الآلوسي، صفحة ٢٦١:١)، وكأنّي أرى أنّ استعمال موسى (عليه السلام) لهذا التعبير الإشاري في سياق يعمه التوجيه والإرشاد والنصيحة فيه إيحاء بأنّ أراد أن يوصل لهم رسالة دقيقة مضمرة مفادها بأنّ هذه نعمة إضافية من جملة النعم التي أنعمها الله عليهم، إذ إنّ من أعظم نعم الله التنبيه على ما به تتخلصون من عذاب أخروي شديد، وإن عفى عنهم في الدنيا بقتل أنفسهم، ﴿لأنّ العفو عن مؤاخذة الذنب في الآخرة قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حدّ ونحوه، وهو حينئذ منةٌ، إذ لو شاء الله لجعل للذنب عقابين دنيوي وأُخروي﴾ (الطاهر، ١٩٨٤، صفحة ٥٠٢:١)، وفضلًا عن(ذلكم) وما فيها من التحريض كان في هذا الخطاب نسقًا تأثيريًا عضّد نجاح تحقق الوظيفة التداولية للإشارة، تمثّل في ثلاثة أمور، أولها: قوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ليكون أشد تأثيرًا عليهم؛ إذ إنّ من أعظم الظلم أن يظلم الإنسان نفسه، وبذلك مهّد لاستجابة أمره، وقبوله عندهم، وضمان طاعته، ثانيهما: قول موسى: ﴿عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾ زيادة منه في الترغيب في التوبة؛ لأنّ المرء مفطور على الحرص على السعي لتحقيق رضا الله تعالى، ولا يعتني بتحقق رضا الناس، أي لم يكن متعلق اسم التفضيل(خير) غير مقيد على نحو إطلاق الخير عند أيّ كان، بل كان مقيدًا بأنّه خير عند الله تعالى، هذا بناء على أنّهم كانوا مسلمين قبل هذا، وثالثهما: الالتفات الى الماضي قائلًا:﴿ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، بعد أن كان خطاب موسى (عليه السلام) مع قومه حضوري، وذلك للدلالة على أنّ

التوبة متحققة لا محال، وهذا زيادة أخرى لتحقق الاطمئنان القلبي عندهم؛ لأنّ ما طلب منهم موسى(عليه السلام) وهو القتل تكفيرًا عن ذنبهم ليس بالأمر الهين، ويحتاج الى فضل بيان وتعليل وقدرة اقناع خطابية، هذا ما أدّته الجملة المعترضة . المتصدرة ب(ذلكم) . والنصوص المرافقة لها قبلًا وبعدًا، أمّا مجيء (ذلكم) مطابقًا للمخاطبين جمعًا زيادة في التنبيه على أنّ الكلام كل الكلام موجه إليكم فضلًا عن غيركم، فالتوبة تجب على كل مذنب، ولاسيما أنتم؛ إذ الذنب الذي اقترفتموه وهو الشرك عظيم جدًا. وعليه فالغرض الإشاري من التبعيد هنا هو التحريض على نحو المبالغة عطفًا وشفقة عليهم.

ثانيًا: قال تعالى: ((حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ)) (سورة المائدة: الآية ٣) .

عمد تعالى في هذا النص التشريعي المبدوء بجملة إخبارية المبنى إنشائية المعنى ((حُرِّمَتْ)) الى النهي عن جملة من المحرمات، منها(الاستقسام بالأزلام)، مشيرًا إليه بـ(ذلكم)، ((للتنبيه عليه حتى يقع الحكم على متميّز معين)) (الطاهر، ١٩٨٤، صفحة ٩٦:٦) ، مريدًا به تأكيد معنى التحريم (الزمخشري، ١٩٨٧، صفحة ٦٠٥:١)، وفيه دلالة إيحائية على قبح هذا العمل عنده تعالى، فضلًا عن التحذير بما فيه من دلالة التبعيد، وعليه نجد أنّ الدلالة الإيحائية في هذه الجملة الاعتراضية مغايرة تمامًا للجملة الاعتراضية في النص السابق؛ وذلك لأنّ هذه الدلالة ((يمكن أن تكون تحقيرية أو تحسينية في الوقت نفسه)) (سيرفوني، ١٩٩٨، صفحة ٥٦)، بحسب السياق التلفظي الذي وقعت فيه. وعليه تساهم الإشاريات في تمييز العلامات المعينة بطوابعها، وهذه الطوابع هي اختلاف إحالة هذه التعابير بالضرورة بحسب ظروف استعمالها، أي: وفقًا لملفوظها في السياق (أرمينكو، ١٩٨٧، صفحة ٤١)، واختلاف موقف المتكلم من المشار إليه أو المحال إليه، وأما مجيئها مطابقًا للمخاطب جمعًا فأريد بها الخطاب والتبعيد معًا قاصدًا هنا شمول التنبيه لكل متلقٍ عمومًا، في كل زمان ومكان، يؤيده مجيؤه نصًا تشريعًا كما أشرنا، والنص التشريعي دستور خطابي يُلزم بتطبيقه جميع البشر، لا يخص زمان ومكان معينين، ومنه يُعلم أنّ الوظيفة الإشارية للتبعيد في (ذلك) هنا هو التأكيد مريدًا به التنبيه والتحذير.

ثالثًا: قال تعالى حكاية لخطاب موسى (عليه السلام) مع قومه)) :وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ((سورة إبراهيم: الآية ٦) .

في محاولةٍ لموسى(عليه السلام) مع قومه لدعوتهم الى توحيد الله تعالى عمد الى تذكيرهم بنعم الله عليهم التي منها نجاتهم من آل فرعون الذين كانوا يلحقون بهم أشد أنواع

العذاب النفسي والجسدي، فذبحوا أبناءهم وقاموا بسبي نساءهم، جزاء من الله لهم على نبذهم لدينهم دين الحق، مشيرًا الى كل تلك المعاني بـ(ذلكم)، لاستحضارها وجعلها كالمحسوس؛ إذ الأصل في(ذلك) الاشارة الى المحسوس المشاهد واستعمالها في المحسوس غير المشاهد أو ما يستحيل احساسه ومشاهدته مجازًا لتنزله منزلة المحسوس المشاهد (الاستربادي، ٢٠٠٧، صفحة ٣:٧٥)، مريدًا بذلك التذكير والترهيب، فباستحضارها سيجعلهم يعيشون ألم تلك اللحظات، ويتذكرون هول ما مرّوا به من تلك المصائب العظيمة، وبذلك سيخلق موسى (عليه السلام) في نفوسهم رهبة وخوفًا، من أجل تحذيرهم من الاستمرار بالكفر بالله تعالى، حتى لا يقع بهم مجددًا ما وقع بهم سابقًا، كل ذلك حكى عنه التعبير الإشاري (ذلكم)، بما فيه من معنى التبعيد، فـ))الجمل الإشارية وقوعات منعكسة؛ لأنّها في الواقع تعكس ظروف سياقها الخاص من خلال الاحالة الضمنية التي تحملها الضمائر الشخصية (أنا ...) أو الأدوات الاشارية، ومنه يعلم أنّ الوقوعات المنعكسة لا تستوفي احالتها المتوقعة الا عند حضور الموضوع (موضوع العبارة الاشارية) في السياق اللساني أو السياق الخارجي للتلفظ(((السيساوي، ٢٠١١، صفحة ٤٥١)، فهذا الخطاب الواقع بيّن موسى وقومه عكس الظرف الخاص بالسياق (التذكير بالمصائب) بوساطة الإحالة الضمنية لـ(ذلكم)، هذا وإنّها لم تستوفِ هذه الإحالة إلا بحضور الموضوع بوساطة هذا التعبير الإشاري نفسه، فضلًا عن ذلك فإنّ الذي ساعد على تحقيق نجاح الإشارة هنا والقصد التداولي الذي يريد المتكلم إرساله للمتلقي هو وجود الكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة بين الطرفين، فلولا علم موسى (عليه السلام) بأنّهم يعوفون مدى هول الابتلاء بتلك المصائب نفسيًا واجتماعيًا، كونهم قد ذاقوا مرارة ذلك على أرض الواقع من قبل لما استعمل هذا التعبير، إذ))يعتمد اختيار نوع معين من تعابير الاشارة دون غيره بشكل كبير على مقدار ما يفترضه المتكلم من أنّ المستمع يعرف ذلك الشيء المشار إليه(((يول، ٢٠١٠، صفحة ٣٩)، ومنه عُلم أنّ الوظيفة الإشارية للتبعيد في(ذلكم) هنا التعظيم المراد منه التذكير والتحذير، هذا إن كان قد أشار بـ(ذلكم) الى مصاديق العذاب، إمّا إذا أراد من استعمالها هنا الإشارة الى النجاة فالقصد التداولي هنا هو التذكير المستلزم للشكر؛ إذ الابتلاء تارة يكون بالمصيبة، وأخرى بالنعمة، وإنّما قال (ذلكم) ولم يقل(ذلك) زيادة في التنبيه وتأكيد في التحذير لكم حصرًا.

فائدة: بعد كل تلك الأمثلة قد يتبادر الى ذهن القارئ سؤالًا: لمَ استعمل القرآن الكريم(ذلك) التي هي للبعيد للإشارة الى معنى أو معانٍ ذكرها في النص نفسه، أي: استعمل البعيد للإشارة الى القريب؟

الجواب: قد بينا سابقًا إنّ استعمال(ذلك) هنا مشيرة الى المعاني استعمالًا مجازيًا لا حقيقًا؛ وعليه فإنّ الخطاب القرآني لا يريد بهذا الاستعمال الإشارة الى محسوس، حتى

يتطلب منا اللجوء الى المقياس النحوي لاختيار العلامة الإشارية المناسبة قربًا وبعدًا، وإنّما يريد الكشف عن مقاصد تداولية يريدها المتكلم، أو بمعنى أدق يريد تضمين دلالات ومقاصد تداولية في التبعيد المتضمن في (ذلك)، وهذا ينطبق على أيّ نوع من الخطابات تستعمل فيها العلامات الإشاريات بهذا الاستعمال.

الخاتمة:

بعد تلك الرحلة الماتعة مع (إشاريات المعنى) توصلنا الى ما يأتي:

١. تستعمل العلامات الإشاريات: (ذا، هذا، ذلك ولواحقها، وتلك ولواحقها) استعمالًا مجازيًا في مواضع عدة منها الإشارة الى المعاني كاشفة عن موقف المتكلم من تلك المعاني.

٢. إنّ تحديد دلالة (إشاريات المعنى) يعتمد على تحقق ثلاث: الوقوع التلفظي لها، وجودها في سياق، الكفاية التواصلية والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين.

٣. إنّ التجليات الإشارية الضمنية لدلالة التبعيد في (ذلك) مشيرة الى المعاني عدة منها:

أ. التعظيم: وتختلف مقاصده التداولية باختلاف السياق الواقع فيه، فقد يراد منه قصد الحث والتحريض، وقد يراد منه الترغيب، وقد يراد منه النصح والارشاد على نحو المبالغة رأفة وشفقة بالمخاطبين، وربما يراد منه التذكير والترهيب.

ب . التحقير مريدًا به التحذير.

ج . التأكيد مريدًا به التنبيه والتحذير.

٤. إنّ مطابقة (ذلك) للمخاطبين (ذلك . ذلكما . ذلكم . ذلكن) إنّما يدل على التبعيد والخطاب معًا من دون فصلٍ بينها. فضلًا عن قصد الخطاب فيها لا يخلو من رسالة مضمرة، يريد المرسل إيصالها الى المرسل إليه، تختلف بحسب السياق أيضًا، فقد يراد منه:

١. شمول الأفراد المخاطبين من دون استثناء.

٢. زيادة في التنبيه والتحذير للمخاطبين حصرًا.

٣. زيادة في التنبيه على أنّ الخطاب موجه إليهم فضلًا عن شموله لغيرهم.

٤. توجيه الخطاب لكل متلقٍ في كل زمان ومكان.

المراجع

١. بافو، و رفاتي. (٢٠١٢). النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن الى الذرائعية (المجلد ١). (محمد الراضي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

٢. براون، و يول. (١٩٩٧). تحليل الخطاب. (الزليطني و التريكي، المترجمون) الرياض: النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود.

٣. ج السيوطي. (٢٠١١). همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (المجلد ٢). بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

٤. ج سيرفوني. (١٩٩٨). الملفوظية. (قاسم المقداد، المترجمون) دمشق: إتحاد الكتاب العرب.

٥. خ الإسكافي. (١٩٨١). درة التنزيل وغرة التأويل . بيروت: دار الآفاق الجديدة.
٦. خ القزويني. (بلا تاريخ). حاشية الدسوقي على شرح السعد. مطبعة عيسى الباي الحلبي وشركاءه.
٧. ر الاستربادي. (٢٠٠٧). شرح كافية ابن الحاجب (المجلد ٢). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
٨. س أورو. (٢٠١٠). فلسفة اللغة. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.
٩. س ليفنسون. (٢٠١٥). البراجماتية اللغوية (المجلد ١). (سعيد حسن بحيري، المترجمون) القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
١٠. ش الآلوسي. (بلا تاريخ). روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني (المجلد ١). (علي عبد الباري عطية، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
١١. شارودو، و منغنو. (٢٠٠٨). معجم تحليل الخطاب. (عبد القاهر المهيري، المترجمون) تونس: دار سينارتو.
١٢. ف أرمينكو. (١٩٨٧). المقاربة التداولية. (سعيد علوش، المترجمون) دار الأنفاء القومي.
١٣. ف بلانشيه. (٢٠٠٧). التداولية من أوستن الى غوفمان (المجلد ١). (صابر الحباشة، المترجمون) سوريا: دار الحوار.
١٤. ك الأنباري. (١٩٩٩). أسرار العربية (المجلد ١). دار الأرقم بن أبي الأرقم.
١٥. م الأندلسي. (بلا تاريخ). البحر المحيط. (جميل صدقي محمد، المحرر) بيروت: دار الفكر.
١٦. م الزمخشري. (١٩٨٧). الكشاف (المجلد ٣). بيروت: بيوت.
١٧. م الطاهر. (١٩٨٤). التحرير والتنوير. الدار التونسية.
١٨. م الطائي. (١٩٩٠). شرح تسهيل الفوائد (المجلد ١). (السيد، و المختون، المحررون) هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان.
١٩. م نحلة. (٢٠١١). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (المجلد ١). القاهرة: مكتبة آداب.
٢٠. ن بوقرة. (٢٠٠٩). المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية (المجلد ١). عمان، الأردن: عالم الكتب الحديث.
٢١. ي السيساوي. (٢٠١١). الإشاريات مقاربة تداولية. تأليف حافظ اسماعيل علوي، التداوليات علم استعمال اللغة (المجلد ١). الأردن: عالم الكتب الحديث.
٢٢. يول. (٢٠١٠). التداولية (المجلد ١). (قصي العتابي، المترجمون) دار الأمان.